"الأنساق الثقافية في قصيدة (لغة الثياب) لمحمد مهدي الجواهري"

م.د. زينب محمد عبود جاسم

مديرية تربية بابل

اعدادية الشموس للبنات

البريد الإلكتروني Email: Zainab19.mohammed.a@gmail.com

الكلمات المفتاحية: النّقدُ الثقافي – آليّاتُ قراءةِ النصّ – اللغةُ التّاريخيةُ – سلطة الوعي السياسيِّ – المرجعية الاجتماعية"

كيفية اقتباس البحث

جاسم ، زينب محمد عبود ، "الأنساق الثقافية في قصيدة (لغة الثياب) لمحمد مهدي الجواهري" ، مجلة مركز بابل للدراسات الانسانية، تشرين الثاني ٢٠٢٥،المجلد:١٥ ،العدد:٦ .

هذا البحث من نوع الوصول المفتوح مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي لحقوق التأليف والنشر (Creative Commons Attribution) تتيح فقط للآخرين تحميل البحث ومشاركته مع الآخرين بشرط نَسب العمل الأصلي للمؤلف، ودون القيام بأي تعديل أو استخدامه لأغراض تجارية.

مفهرسة في Indexed
IASJ

مسجلة في Registered
ROAD

"Cultural Patterns in Muhammad Mahdi al-Jawahiri's Poem Lughat al-Thiyab"

Dr. Zainab Mohammed Aboud Jassim

Keywords : Cultural Criticism – Mechanisms of Textual Interpretation – Historical Language – The Authority of Political Consciousness – Social Referentiality."

How To Cite This Article

, Journal Of Babylon Center For Humanities Studies, November 2025,Volume:15,Issue 6.

This is an open access article under the CC BY-NC-ND license (http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License.

Abstract

Modern and postmodern critical studies draw upon specific cultural values that significantly impact the construction of poetic discourse and the formulation of its fundamental principles. Among the most notable approaches that emphasize the discursive aspect and aid in interpreting texts, by connecting them to the contexts in which they were created, is one that focuses on the social, political, and intellectual dimensions surrounding the poet. These factors influence the poet's thoughts and crystallize their visions, allowing critics to use this context as a means to explore the deeper meanings within the text.

By following certain standards that address its need to understand creative language, modern criticism aims to offer methods for interpreting symbols and exploring the meanings that lie beneath. This is

accomplished by examining linguistic signs and symbolic themes to achieve a thorough understanding of the author's intentions through analysis and interpretation. This involves emphasizing the dimension of cultural patterns, which is inseparable from discourse analysis due to the tight relationship between cultural patterns and their emotional impact. This emotion will then serve as the central concept for the discourse.

Considering the procedural requirements and methodologies employed in cultural analysis for innovative texts, this study aims to interpret the poetic language found in one of the most renowned poems that showcases the intertwining of reality in all its aspects along with the poet's thoughts, fantasies, and imaginative imagery. This is exemplified in "Lughat al-Thiyab" by Iraqi poet Mohammed Mahdi Al-Jawahiri. The poem's underlying meanings allow for an analysis through this methodology, reflecting a genuine sensitivity to the poet's intended message. Relying solely on the aesthetic use of language, as practiced by certain poets, proves inadequate for a detailed textual analysis and understanding of their aims; thus, postmodern criticism has sought to offer alternative strategies for a deeper engagement with poetic discourse.

ملخص

تَستدعي الدّراساتُ النقديةُ الحداثيةُ ومَا بعدَ الحداثيةِ بعضَ القيمِ الثّقافيةِ ذات التأثيرِ المباشرِ في صِناعةِ الخطابِ الشعريِّ، وصياغةِ أبجديّاتِه، ومِن أبرزِ الممارساتِ التي عَمِلَت عَلَى إبرازِ المكوِّنِ الخطابيِّ، وأسهمَت في قراءةِ النصِّ والغوصِ عَلَى إظهارِ مقاصدِهِ، مِن خلالِ ربطِه بسياقاتِه التي أنتجتْهُ، ذلك المقاربة النسقية الثقافية التي عوَّلَت في استقبالِ الخطابِ الشعريِّ على البُؤَرِ والأبعادِ الاجتماعيةِ والسياسيةِ والفكريةِ التي أحاطَت بالشاعرِ؛ فأثَّرت فيهِ، وَأثْرَتْ فِكرَه وبلورَت رُؤاهُ؛ ليتَّخذَ منهُ الناقدُ وسيلةً يتبلَّغُ في الاهتداءِ إلى مكامنِ النصِّ بها.

وفِي التزامِ النّقدِ الحداثيِّ بـبَعضِ المَعاييرِ التي تُلبّي لهُ حاجتَه مِن قراءةِ الخطابِ الإبداعيِّ، يَسَعى لِتوفيرِ السُّبلِ المُمكنةِ لفكِّ شفراتِهِ وسَبرِ أغوارِه؛ ليَصِلَ مِن قراءتِه للعلاماتِ اللغويةِ والثّيماتِ الرمزيةِ المُستعملةِ فيهِ، إلَى الوقوفِ عَلَى مُجملِ مقاصدِهِ تَحليًلا وتَعليلًا، وذلكَ بِتسليطِ الضّوءِ عَلَى المُكوِّنِ النّسقيِّ الثّقافيِّ الذي لا ينفصلُ تحليلُ الخطابِ بِحالٍ عَنهُ؛ لِشدّةِ ارتباطِ الأنساقِ الثّقافيةِ بِالأثرِ النّاجمِ في النّفسِ، والذي يَتحوّلُ بِدَورِه إلَى فِكرةٍ تُؤسِّسُ لِبناءِ خلايا هذا الخطابِ.

وفي ضَوءِ المعاييرِ والخطواتِ الإجرائيةِ التي تنهضُ عليها هذا المقاربة الثّقافيةُ فِي قَراءتِها للنصِّ الإبداعيِّ، يتطلَّع هذا البحثُ لقراءةِ الخطابِ الشعريِّ في إحدَى أبرزِ القصائدِ

الشعريةِ التي تُجلِّي عن امتزاجِ الواقعِ بكلِّ مفرداتِه معَ فِكرِ الشاعرِ وأخيلتِه وصورِه الإبداعيةِ، وهي قصيدةُ (لُغةُ الثيابِ) للشاعرِ العراقيِّ محمد مهدي "الجواهري"، فالمعاني الضّمنيةُ الّتي شَهِدَتْها تلكَ القصيدةُ تكفلُ للباحثِ الولوجَ إلَيها مِن طريقِ هذا النوعِ من الممارساتِ النقدية التي تُحيلُ عَلَى وَعيٍ أصيلٍ بِمرادِ الشّاعرِ منهَا، ولتوقّفِ تَقَنيةِ استخدامِ اللغةِ عَلَى ما ظهَرَ لِبعضِ الشّعراءِ منهَا فِي جَانبِها الجماليِّ، لَم تَعُد صالحةً بِالقدرِ الكافي لِسبرِ أغوارِ النّصوصِ، والوقوفِ عَلَى مقاصدِها والتعرُّفِ عَلَى مرادِ النّاصِّ منهَا، مِن هُنا سَعَى الدّرسُ النّقديُّ مَا بعدَ الحداثيِّ نحوَ إيجادِ حلولٍ بديلةٍ لِتناولِ الخطابِ الشّعريِّ تناولًا عميقًا."

مُقدِّمةٌ

إنّ قَراءةَ أيٍّ من الخطاباتِ الإبداعيّةِ يَستلزمُ إلْمَامَ النّاقدِ بِالكثيرِ مِنَ الآليّاتِ الّتي تُرَسِّخُ فِي نفسِه ذِهنيَّةَ استقبالِ الخطابِ الشّعريِّ بِمَا يُحقّقُ لهُ قراءةً ناضجةً تُمكِّنُ مِنَ الوَعي بِأهدافِ النّصِّ بِحَسبِ مقاصدِ الشّاعرِ، لَا بِمَا يتراءَى للنَاقدِ، فَتقِفُ عَلَى مكامنِ الاختلافِ والائتلافِ بينَه وبينَ غيرِه من الخطاباتِ الشّعريةِ الّتي تَناولَت الغَرضَ ذاتَه، دونَ الوثوبِ عَلَى الظّواهرِ الإبداعيةِ الّتي قدَّمَ الشّاعرُ فِكرَتَه خِلالَهَا للقارئِ.

وتعملُ كثيرٌ من المقارباتِ النقديةِ والنظرياتِ على الكشفِ عن مُضمراتِ العملِ الأدبيِّ، لاسيما لو كان شعرًا، غيرَ أنَّ شيئًا منها لم يتربَّع على عرشِ قراءةِ الخطابِ الأدبيِّ في تيَّاراتِ ما بعدَ الحداثةِ، كما تربَّعت المقاربةُ النسقيةُ الثقافيةُ عليهِ، وذلك لاستدراكِها على غيرِها من الممارساتِ التي نظرت إلى النصِّ نظرةً جزئيةً لا تُحيطُ بمقاصدِه الكُليةِ، ولا تُؤطِّر لبواعثِ إنتاجِه معَ أهدافِه بصِلَةٍ؛ ولذلك قَويت علاقةُ النُّقادُ المُعاصرون بِها، فاعتمدَها أكثرُهم ممارسةً أصيلةً لهُ في مُقاربةِ النصوصِ الإبداعيةِ.

ويُطلُّ علينا ذلك النوعُ من الممارساتِ، من نافذةِ المدرسةِ التفكيكيةِ التي تغزو النصَّ مُحيطيًّا؛ فتكشفُ عن أبعادِه، وتسبرُ أغوارَه اجتماعيًّا وسياسيًّا ودينيًّا وفِكريًّا؛ فيتحوَّلُ من مجرَّدِ خطابٍ جماليٍّ يُترجمُ جانبًا من مشاعرِ الناصِّ إلى خطابٍ أبعدَ غورًا وأرحبَ مجالًا، يهدُفُ إلى استقطابِ القَارئِ لهُ، وتوغُّلِه فيهِ، واستثارتِه عبرَ اللغةِ والمخيالِ الشعريِّ؛ ليجمعَ بينَ جديَّةِ الغايةِ، وروعةِ الوسيلةِ.

وتتبلورُ ملامحُ القراءةِ الثقافيةِ للخطابِ الشِّعريِّ في قصيدةِ (لُغةِ الثيابِ) للشاعرِ العراقيِّ محمد مهدي "الجواهري"، في عددٍ من الأيدلوجياتِ التي تنمُّ عن خصوصيةِ فِكرِ الشاعرِ، والانبثقاتِ الثقافيةِ التي أسَّست لِبناءِ هذا الفِكرِ المستقلِّ، ويُمكنُ استجلاءُ تلك الأنساقِ عبرَ هذه

الآليَّاتِ التي وظَّفَها الشاعرُ في خطابِه، فَألْزَمَتِ البَاحثَ بِتقسيمِها إلَى عددٍ من المَباحثِ التي تَستهدفُ الوفاءَ بِمُتطلّباتِ الدّراسةِ، وهي عَلَى هذا النّحوِ:

-"اللُّغةُ التاريخيةُ فِي الخطابِ الشّعريِّ لقصيدةِ (لُغةُ الثّيابِ)

-سُلطةُ الوّعي السّياسيِّ في قصيدةِ (لُغةِ الثّيابِ)

-طَغرةُ المبادئِ الإنسانيّةِ في قصيدةِ (لُغةِ الثّيابِ)"

المبحثُ الأولُ

اللُّغةُ التاريخيةُ فِي الخطابِ الشّعريِّ لقصيدةِ (لُغةُ الثّيابِ)

"تُعتبَرُ اللغةُ أحدَ أبرزِ آليّاتِ التّواصلِ البشريِّ؛ وَقَد عبَّرَت المَصادرُ القديمةُ عَنَ ذلكَ تعبيرًا دقيقًا، يُستفادُ منهُ أنَّها ضرورةٌ إنسانيةٌ، وركيزةٌ مِن ركائزِ استيعابِ فِكرِ الآخرِ، وتَفهُّمِ غاياتِه، والإحالةِ مِن خلالِها عَلَى مَقَاصدِه، مِن حيثُ كانَ للغةِ طابعًا اجتماعيًّا ثريًّا بِأنواعِ المعارفِ الّتي تَنتقلُ للنّاسِ بِمختلفِ توجُّهاتِهِم عَبرَهَا، وقَد لاحظَ ابنُ جنّي ذلكَ فنصَّ فِي تَعريفِ للغةِ عَلَى ذلكَ الجانبِ ضِمنيًّا، فَقالَ: "هِي أصْوَاتٌ يُعبِّرُ بِها كلُّ قَومٍ عَن أغراضِهم"[١]، وكونُ اللغةِ نسقًا اجتماعيًّا صيَّرَها ركيزةً أصيلةً في بناءِ الخطابِ تُساعدُ بنظامِها المتوازنِ على الإحالةِ من الثباتِ إلى الاختلافاتِ التي تبرزُ في مُعاملاتِ الابتكارِ[٢]، ولذلك عرَّف دي سوسير اللغةَ بأنَّها: "نظامٌ من الاختلافات"[٣]، مِن حيثُ كانَ التزامِ القيمةِ فيهَا مضمونيٌّ، أمّا إحداثُ التوازناتِ بينَ الأغراضِ وطبيعةِ اللغةِ فذلكَ بحسَبِ الناصِّ.

ويُمكنُ تقصّيَ الطّبيعةَ التّاريخيةَ للغةِ في قَصيدةِ (لُغةِ الثيابِ) لَدَى "الجواهري"، فِي ضوءِ قراءةِ الظّواهرِ اللغويّةِ المُتعلّقةِ بِلُغةِ "الجواهري" نفسِها الّتي وظَّفَها في النّصِّ عَلَى طَبيعةِ لُغةِ الثّيابِ، ولُغةِ الثّيابِ الّتي يَصفُها هو كَأنَّ القصيدةَ للثيّابِ لا للجواهريِّ، ففي قَولِهِ[٤]:

لُغـــــةُ الثيَّـــــابِ عَرفتُهـــــا ... وأجَـــــدتُهَا حَـــــرفٌ بِحـــــرفِ
لَـــــم أنخَـــــدِع برفيفِهـــــا ... عِلمًـــــا بِمـــــا تحـــــتَ المَـــــرَفِّ
فَلَطَالمَـــــا خَفَقَـــــتْ علَـــــى ... شـــــرسٍ كجِلْـــــدِ (الفِيـــــل) جلـــــفِ
وَلَطالَمَـــــا خَلِقَـــــت علَـــــى ... سَـــــمحٍ كَضَـــــوءِ الفَجـــــرِ عـــــفِّ
نَعَظَـــــتْ إلَـــــيَّ رُؤوسُـــــها ... فِيهَـــــا تَغـــــامَزَ أَلـــــفُ طَـــــرفِ
واسْـــــتَلَّتِ الأَكمـــــامَ ألـــــ ... ـــــسِنةً مُؤمنـــــةً تُقَفِّـــــي

إذ لَمَ تَكُن صُحبَةُ "الجواهري" لِلُغةِ الثّيابِ صُحبةً عبثيةً، بل إنّ لَهَا عَلاقةً تاريخيةً رَبطَت بينَ "الجواهري" هذه اللغةِ فَتعمَّقَت الروابطُ بينهما، مِمَا زَادَ معرفتَه بِهَا وبطريقةِ صياغةِ أبجديّاتِ

الثّيابِ لهَا صِياغةً خاصةً لا يتقاسمُه فيهَا أحدٌ، والنصُّ عَلَ قوّةِ لُغةِ الثّيابِ الذي استدعاهُ "الجواهري" فِي قولِهِ: "لَمْ أَنخَدِع بَرَفِيفِهَا عِلمًا بِمَا تَحتَ المِرَفِّ" إنّما يَرمزُ بِهِ إلَى أنَّ تهالكَ هذه اللغةِ ورفيفِها تحتّ المَرفِّ لَيسَ غلّا حِرصًا مِن الثيابِ عَلى وجودِه؛ لأنّ إغلاظَ القولِ في السّياسةِ قَد يُؤدّي بِه إلَى الهلاكِ، ومن ثمَّ عوَّلَ على لُغةِ الخطابِ الرّقيقةِ غيرِ ذاتِ التّأثيرِ ليكونَ بِمعزلٍ عَن الشّبهةِ الّتي قَد تجلبُ عَليهِ الهلاكَ.

وفِي بَعضُ المرتكزاتِ الّتي تضمَّنَت حديثًا رمزيًا عَنَ أثرِ اللغةِ في صِناعةِ وبناءِ الأثرِ النّفسيِّ المُترتّبِ عَلَى قَراءتِهِ لَا بناءِ المعنَى وحدَه كمَا يظنُّ بعضُهم، فلِمَّا كَانَ للثيابِ سبقٌ إلَى مواجهةَ مَا لَا يُعجبُه بِلُغةٍ صريحةٍ، وتَباينَ ذلكَ بشكلٍ ملحوظٍ مَعَ سلوكِه فِيمَا بعدُ بعدَ أن عَمَدَ إلَى ترقيقِ لُغتِهِ، زاوَجَ "الجواهري" بينَ هاتين الحالتَين، فَجاءَ بعدَ ذلكَ البيتِ بقولِه: "فَلَطَالَمَا خَفَقَت عَلَى شَرسٍ.."، كَأنَه يَستنكرُ عَليهِ التحوُّلُ الملوسُ فِي نوعِ اللغةِ التي استعملَهَا في خطابِه الشّعريِّ؛ لتغيُّرِ الأحوالِ وانقلابِ الناسِ، وكانَت قبلَ ذلكَ الوقتِ خشِنةً خشونةَ جِلدِ الفيلِ، ولعلّه رَامَ بذكرِ هذا الاسمِ (الفيل) أحدًا بِعينِه، فاستعملَه أيضًا عَلامةً عَلى الخشونةِ التي تمتّعت بِها لُغتُه، ومنَها تحوّلَ إلَى مَا لم يُعتَد من اللينِ والرفيف.

ثُمّ لمَّا أرادَ مُناقشَةَ تحوّلاتِ العلاقةِ الحديثةِ بينَ اللغةِ النّمطية المُعتادةِ تَاريخيًّا في شِعرِ الثيابِ، بوصفِهَا أداةً مُهيمنةً عَلَى الصورةِ العامّةِ لبصمتِه الّتي يُعرَفُ بِهَا، وهَذا السّلوكُ غيرِ الاعتياديِّ الذي يَسِمُ الإبداعَ اللغويَّ في نصوصِ الثيابِ بِسمَاتٍ جديدةٍ، سَعَى إلَى تفكيكِ هذا بالمَزجِ بينَ طَبيعةِ هذا اللغةِ في الماضي بحدِّ تعبيرِه: "كَجِلدِ الفِيلِ"، والحاضرِ، بِتعبيرِه: "خَلِقَت عَلَى سَمْحٍ كَضَوءِ الفَجرِ عَفٍّ"؛ ليظهرَ البَونُ شاسعًا بينَ النّسقِ الثّقافيِّ القّديمِ الذي وَظَّفَ فِيهِ اللغةَ وَطوَّعَ مفردَاتِها عَلَى نحوٍ لَا يَخشَى معَه اللومَ، والنّسقِ الحّديثِ الذي رُبّما دعاهُ إلَى ترقيقِ اللغةِ فيهِ خوفُه مِمّا قَدَ يرَاهُ مِن نقدٍ أو غيرِه.

ومن الظواهرِ التاريخيةِ التي تناولَها الشاعرُ في لغةِ الثيابِ ذلك الجانبُ المشرقُ من نظامِها الذي تنهضُ عليهِ، والذي احتفلَ به فُصحاءُ العربِ، فكانَ ذريعةً إلى الأخذِ على غيرِهم ممَّن لا يُجيدونَ تصريفَ اللغةِ على طريقتِه، وذلك حينَ تحدَّثَ عن براعةِ وروعةِ لغةِ الثيابِ، في قولِه[٥]:

قَالَـــت بِأفصَـــحِ مـــا احْتَـــوتْ لُغـــــةٌ بِـــــلا نحـــــوٍ وصَـــــرفِ
حِقبًـــا طِـــوالًا كُنـــتُ إلْفَـــكَ بـــــرَّةً يَـــــا شَـــــرَّ إلْـــــفِ!

وذلكَ ظاهرُ فِي تَجريدِ "الجواهري" اللغةَ عن ذلك النظامِ النَّحويِّ والصرفيِّ الملتزمِ في الحكمِ على جودةِ وقوةِ الخطابِ الشعريِّ؛ لِما يراهُ من أنَّ تجريدَ النصِّ من مظاهرِ قوتِه معَ الحكمِ لهُ بالكمالِ

المعنويِّ والجمالِ الحسيِّ، رمزٌ لامتلاك الثيابِ الآلاتِ التي يصلُ بها إلى قلبِ متلقِّيه من غيرِ حاجةٍ إلى اللغةِ النمطيةِ ذاتِ النظامِ النحويِّ والصرفيِّ.

وتُجلِّي عبارةُ الشّاعرِ "بِلَا نَحوٍ وَلَا صَرفٍ" عَن تَاريخيةِ العنايةِ العربيةِ بقواعدِ اللغةِ ومبادئِ تعليمِها، ونفيُ عِنايةِ الثيابِ بِضَوابطِ اللغةِ التي اعتَنَى بِها العربُ قَديمًا مَعَ خروجِ نصّوصِه عَلَى قَدرٍ مِنَ الفصاحةِ استدَعَى "الجواهري" صيغةَ التّفضيلِ في (أَفْصَحَ) فقالَ: "قَالَتْ: بِأَفصَحَ مَا احتَوَتْ..."، تَعبيرًا عَن بلوغِ الثيابِ الغايةَ القُصوَى فِي تَعاطيهِ مَعَ النصِّ الشّعريِّ بِغيرِ استنادٍ إلى الضوابطِ التي من شأنِ العربِ الحكم على جودةِ النصِّ بها.

كَما تتمظهرُ الطبيعةُ التّاريخيةُ في رمزِ "الجواهري" بِالحِقَبِ الطويلةِ مِن قولِهِ: "حِقَبًا طِوالًا كُنتُ إِلْفَكَ..."، مِن حيثُ كَانت حياةُ اللغةِ أَسبَقَ مِن حياةِ الإنسانِ، ولكن لارتباطِ وجودِها بوجودِها، كانَ في تعميرِه هو تعميرٌ لَهَا، ويُطوِّعُ "الجواهري" لسانَ اللغةِ في التعبيرِ عَن حالِها معَ الثّيابِ حينَ ذكَّرتْه بِأنّها كانت نِعمَ الأليفِ لشرِّ الأليفِ، لِيستدعي بهذا النسّقِ الثّقافيِّ الذي جَعلَ اللغةَ تعبيرًا صادقًا عنه، الفوارقَ الظّاهرةَ بينَ شاعريةِ الثيابِ المعاصرةِ وشاعريةِ القُدَامى مِمّن التزموا ضَبطَ اللغةِ ومعَ ذلكَ لم يَبلغوا شأوَه.

ومن الملاحظِ أنَّ "الجواهري" يصفُ لغةَ الثيابِ في هذه الأبياتِ وصفًا دقيقًا لا يكادُ المتلقِّي يُفرّق بينَ ما إن كانَ "الجواهري" يصفُ لغةَ شعرِه هو أو لغةَ شعرِ غيرِه، ولعلَّ ذلك راجعٌ إلى طولِ صحبتِه لشعرِ الثيابِ، حتى انعكسَ عليهِ ذلك بقوةِ تمكُّنِه من لُغتِه، أما لغةُ "الجواهري" نفسِه التي وظَّفها في وصفِ لغةِ الثيابِ، فليست أقلَّ من أن تترك هي الأُخرَى علامةً بارزةً في النصِّ، وتأثيرًا ملموسًا في نفسِ المتلقي، وفي مناقشتِها باعتبارِها نسقًا لغويًّا تاريخيًّا نستقي منهُ جزالةَ اللفظِ، وقوّةَ الاستدلالِ عَلَ المعَنَى، وبراعةَ الصّورةِ، يُمكنُ الوقوفُ عَلَى ذلَك في قَولِهِ[٦]:

دَرعَ الحُتـــــوفِ عليـــــكَ كُنـــــتُ ... وفـــــي يَـــــدَيكَ مَـــــدَبُّ حَتفِـــــي
يَـــــا مُولَعًـــــا ابـــــدًا بِطَـــــرْ ... حِـــــي يَتَّقِـــــي وَضَـــــرِي وَحَـــــذْفِي
مَـــا كَـــانَ مِـــن دَرَنِـــي، فَمِنـــ ... ـــكَ، ومِـــن دمٍ غَشـــيَانِ صَـــلفِ

حيثُ يُصوِّرُ لسانَ حالِ اللغةِ في لَومِهَا عَلَى الثيابِ انّهَا كانت سببًا في الحفاظِ عَلَى حياتِه في المواقفِ التي أهلَكَت اللغةُ فيهَا غيرَه من الشّعراءِ، في الوقتِ الذي كانَ هو سببًا في الإلقاءِ بِهَا إلَى حتفِها وهلاكِها، بِشخصٍ يَلومُ عَلَى مَن كانَ سببًا في حَياتِه فَكانَ هو سببًا في موتِه، وذلك مِن نوعِ الصّورِ الاستعاريةِ الّتي تُجسّدُ حجمَ فجيعةِ "الجواهري" في لُغةِ الثّيابِ، وتسَتجلي مساحةَ التّحوُّلِ التي أصَابَت هذه اللغةِ في طَورَينِ تَاريخيينَ مُختلِفَين، وقَد آثرَ استدعاءَ هذا المعنَى عَبرَ

تلكَ الصّورةِ التّي تَحتلُّ محلَّها في النّمطِ التصويريِّ التاريخيِّ للغةِ العربيةِ، وهي الاستعارةُ "التمثيليةُ الّتي تَقومُ عَلَى تشبيهِ حالةٍ بِحالةٍ وتمثيلِ صورةٍ تامّةٍ بصورةٍ أخرَى"[٧]؛ لِبناءِ تصوُّرٍ شاملٍ حولَ تَغيُّرِ اللغةِ مِن شكلٍ إلَى كلٍ.

ويتحوَّلُ "الجواهري" إلَى تناولِ هذا الجانبِ الذي يُعيدُ تشكيلَ صورةِ اللغةِ في شِعرِ الثيابِ، تبعًا لتحوّلاتِ اللغةِ عندَ الثيّابِ نفسِه، حينَ يستعيرُ لِهذه اللغةِ قوّةَ الكلامِ، لتتوجّه إلَى الثيابِ باللومِ عَلَى طَرحِها مِن حُسبانِه؛ اتقاءً لِمَا عساهَا جلبُه عَليهِ من الوضرِ (الوسَخ)، فيحذفُ مِنهَا مَا شاءَ حذفَه مخافةَ أن تكونَ سببًا في الإيقاعِ فِيمَا يخافُ، وهو في ذلكَ ليسَ بدَعًا مِن شعراءِ العربِ في الأعصرِ القديمةِ، فهو يُعيدُ هنا طرحَ قضيةِ الإبهامِ اللغويِّ في الشّعرِ الأُمويِّ، حيثُ عَمدَ الشّعراءُ إلَى التّعميةِ مخافةَ أن تطالَهم أيدي الحُكّامِ[٨]، وذلك عبرَ ما تُتيحهُ اللغةُ من تراكماتٍ مضمونيةٍ، وتُنتجُه من تشاكلاتٍ تحقق الغايةَ منها في ظلالِ المعاني[٩].

ويظهرُ جَانبٌ مِن التفاعلِ التّقنيِّ بينَ اللغةِ التّاريخيةِ الّتي استعادَ "الجواهري" منهَا بعضَ القديمِ، بِوصفِها نَسقًا تاريخيًّا يُمكنُ الانطلاقُ منهُ، ومَا تؤدّيه مِن دلالاتِ حَداثويةٍ تربطُ بينَ التاريخِ والواقعِ، فيقولُ[١٠]:

كَـــم أنـــتَ قَـــاسٍ يَـــا بـــنَ حَـــوَّ ... اءٍ مُوَلَّعـــــــــــةٍ بِخصْـــــــــــفِ
هَرَبَـــــتْ مِـــــن العُـــــرْي الطَّـــــ ... ـــــــهورِ، وجَنَّـــــةٍ تَـــــدوِي وتَشـــــفِي
وتَقَيَّلَـــــــت وَعْثَـــــا تَفَجَّـــــرَ ... عَـــــن قُلُـــــوبٍ فِيـــــهِ غُلـــــفِ

تَأطيرًا لذلكَ التّاريخِ الذي يُسائِلُه "الجواهري" عَلَى لسانِ اللغةِ اللائمةِ عَلَى الثيابِ، باتّهامِه بِأنّه عَلَ شاكلةِ أُمِّه حوّاءَ الّتي تركَتَ العُري الطهورَ الذي كَانتَ عليهِ في الجنةِ رغبةً في السّترِ غيرِ الطّهورِ الذي أصابَت نصيبَها منهُ بنزولِها إلَى الأرضِ، فَلَم يَعُد ذلكَ عليهَا إلّا بأن تتَفيَّأ الوحلَ وتعيشَ فيهِ، وفقد عبَّر "الجواهري" عن ذلك خلال هذا النسيجِ اللغويِّ الذي يُشكِّلُه "مجموعُ السنن والأعرافِ اللغويةِ التي تخضعُ لها عمليةُ إنتاجِ الرسالةِ وتوصيلِها"[١١]، وذلك باعتبارِ العلاقةِ بينَ تاريخيةِ الصورةِ الانطباعيةِ بينَ ما فعلته حواءُن وما أنتجَه الثيابُ فِي تحوُّلِه مِن أنساقِ اللغةِ التاريخيةِ الّتي بَدأَهَا بالتّخلي عَن القَواعدِ النّحويةِ والصّرفيةِ، وَانتهَى إلَى السّقوطِ في أوحالِ اللغةِ الرديئةِ.

المَبحثُ الثّاني

سُلطةُ الوّعي السّياسيِّ في قصيدةِ (لُغةِ الثّيابِ)

لم يَكن حديثُ "الجواهري" في قصيدةِ (لُغةِ الثيابِ) ليتجرَّدَ عن سُلطانِ السياساتِ التي يرَى أنَّها جرَّتْه إلى انتِحاءِ هذا النحوِ بِعينِه في التغيُّرِ الذي اندفَع نحوَه بقوةٍ؛ فإنَّ الأنساقَ الخارجيةَ التي تُعيدُ بناءَ وعي الشاعرِ بقضايا مُجتمعِه السياسيةِ، كثيرًا ما تدفعُه نحوَ إيثارِ نزعةِ التهكُّم والسخريةِ على الجدِّ في تناولِها، تعبيرًا عن الرفضِ والتمردِ بطريقةٍ مختلفةٍ عن المعتادةِ، فيسعَى إلى "تطويعِ اللغةِ في خدمةِ هذا الغرضِ؛ تحريكًا لمشاعرِ الجماهيرِ"[١٢]، ومن ثمَّ تكونُ اللغةُ مظهرًا من مظاهرِ التوصيلِ، لا أنَّها حِليةٌ جماليةٌ يسعَى الشاعرُ في ضوئِها لإبرازِ مواهبِه[١٣]، ويبظهرُ الغذامي أنَّ مركزيةَ العلاقةِ بين اللغةِ والفكرةِ التي تُعبِّرُ عنها في النسقِ السياسيِّ تتمثَّلُ دورانِ الخطابِ الشعريِّ حولَ الخطاباتِ والسلوكياتِ الاخرَى، فالشِّعرُ ليسَ خطابًا مجازيًّا متعاليًا على شروطِ الواقعِ بل هو حديثٌ مؤصَّلٌ عنه[١٤].

وتُسفِرُ لَنَا تلَك الآبياتُ الّتي يقولُ فيهَا "الجواهري"[١٥]:

أَعطَـــاكَ مَـــنْ سَـــوَّاك مِـــلءَ الْعَـــينِ مِـــن مَـــرَحٍ وظُـــرفِ!
أظْفـــارَ غُـــولٍ سَـــبْطَةٍ ونُيـــوبَ ذِئـــبٍ غيـــرِ عُقِـــفِ
مَـــا أفحَـــشَ الغـــاوي بِصَـــا عِـــر قُـــوَّةٍ، ومُبـــينِ ضَـــعفِ

عَن عُجبِهِ بِمَا وهَبَهَ اللهُ تَعالَى للثيّابِ مِن قُدرةٍ تُمكِّنُه مِن الولوجِ إلَى القلوبِ مِن أقربِ طَريقٍ؛ إذ إنّه ينسبُ تلكَ الهباتِ إلَى الفطرةِ التي فَطرَه اللهُ عَليهَا، بِقولِهِ: "أَعْطَاكَ مَن سَوَّاكَ" ففي التّسويةِ خلقٌ عَلَى أتمِّ صورةٍ وأكملِ خِلقةٍ غَيرَ أنَّ التنويعَ في المُفرداتِ والمُوازاةِ بينَها مِن حيثُ التّضادِّ بينَ قولِهِ: "مِن مَرَحٍ وظُرفٍ"، وقولِهِ: "أَظفَارَ غُولٍ... نيوبَ ذِئبٍ"؛ مِن حيثُ عَقدَ بينَ طراوةِ التّعبيرِ، وشدّتِه "مفارقةً دراميةً منشؤُها التّضادُّ بينَ مَعنيينَ لا يَنتظمُهما كلامٌ واحدٌ"[١٦]، تُفرزُ أثرَهَا في المعنَى بِمَا يتظاهرُ للقارئِ مِن تحوّلاتٍ في الأنساقِ الخارجيةِ الّتي أسَّست لفكرةِ النصِّ، حيثُ انتقلَ الثّيابُ مِن طورِ المُلاينةِ والمُهادنةِ إلَى طورٍ جديدٍ تُمليهِ عَليهِ التغيُّراتُ السياسيةُ.

ويتخذُ النسقُ الثقافيُّ السياسيُّ في تلك الأبياتِ بُعدًا سياسيًّا ضمنيًّا يتبلورُ في الإشارةِ إلى ارتداءِ الثيابِ لكلِّ موقفٍ ثوبَه، فمتَى اقتضَى الأمرُ الظرفَ صارَ إليهِ، ومتى اقتضَى التغوُّلَ والاستذءابَ تحوَّل إليهِ، وذلك معيارٌ معروفٌ في التعاملِ معَ الأحداثِ وسياسيةِ الوقائعِ، وهو أيضًا خاضعٌ لتطبيقِ الوظائفِ النسقيةِ المختلفةِ في قراءةِ النصوصِ التواصليةِ بحسبِ ما تدفعُ إليهِ الأحداثُ المُلِمَّةُ بالشاعرِ عندَ تأسيسِ الخطاب[١٧]؛ لصياغةِ الأحكامِ النقديةِ المُسقطَةِ عليها

بوضوحٍ، وذلك ظاهرٌ في المُباينةِ بينَ استفحاشِ القوةِ الذي يدعو صاحبَه لتصعيرِ خدِّه وميلِه كبرًا، وبينَ استفحاشِ الضعفِ الذي يبعثُ الضعيفَ على التخاذلِ عن الأخذِ بحقِّه، فهما معنيانِ متفارقانِ شكلًا ومضمونًا.

وقد بنَى هذا التباينَ على المحاذاة الصوتيةِ المبنيةِ على الحذفِ، من خلالِ أسلوب التعجبِ القياسيِّ، في قولِه "ما أفحشَ... ومُبين ضعف" وما سبقَه من قولِه: "من مرحٍ وظُرفِ... أظفارَ غُولٍ"؛ "لتحقيقِ الانسجامِ الصوتي أو التوازنِ بينَ الألفاظِ"، فحذفَ من الأولِ الفعلَ (أعطاك) قبلَ: "أظفارَ"، فهو مفعولُ الفعلِ (أعطاكَ)، ومن الثاني: أداةَ التعجبِ والفعلِ المتعجَّب منه (ما أفحشَ) قبلَ: "ومُبينَ ضَعفِ"، ذلك أنَّ "العربَ تزيدُ وتحذفُ حفظًا للتوازنِ، وإيثارًا له"[١٨]، وانتقالُ الشاعرِ من الذكرِ إلى الحذفِ عبرَ ذلك النوعِ من المحاذاةِ مُبرزٌ لهذه التحولاتِ التي تجعلُ الخطاب "يتفتَّح فيا لا يُحصَى من الأدوارِ الثيماتية"[١٩]؛ لتُعيدَ تشكيلَ الخطابِ وفقَ تحولاتِ الواقعِ الذي يعيشُه الثيابُ وينقلُه لنا "الجواهري" بعبارةٍ أقربِ ما تكونُ إلى الإبهامِ.

وكونُ الأمرِ لَم يَبلغ حدَّ الكفايةِ في تَعبيرِ اللغةِ عَن نفسِها فِي خطابٍ مُفعمٍ بِالتّحولاتِ النّاجمةِ عَنَ تَعدديةِ الأنساقِ الثّقافيةِ، والارتباكِ والتّشظّي، والتّردّدِ بينَ المُتناقضاتِ، يَبيّنُ "الجواهري" مدعاةَ حِيادَ الثيابِ عَن الأصولِ الّتي شَرَعَها لِنفسِهِ فِي لُغةِ خطابِه الشّعريِّ إلَى لُغةٍ لَا تُجلّي عَن شخصيّتِه ولا تُسفِرُ عن ذاتِه، فيقولُ[٢٠]:

مَـــا كَـــانَ أحـــوجَ مَـــن يُـــرَ ... قِّصَـــــــه إلَـــــى (صـــــنج) ودُفِّ
فَـــإذَا تَقمَّصَـــني تَبخْتَـــرَ ... يُطَـــــاقُ مِـــــنَ التَّكفِّـــــي
لَا وانصَـــاعَ كالطَّـــاووسِ يَســـ ... ـــحَبُ ذَيلَـــهُ فَـــوقَ المِـــزَفّ"

فهو إذ يَرَى مِن الأحداثِ مَا يَبعثُ في نَفسِه الحَميّةَ، يَسوقُ خِطابَهَ عَلَ الوجهِ الذي يُعبِّرُ عَنَ ذلكَ بِلُغةٍ قويةٍ يَتقمَّصُهَا كَأنَها هِي هو، حتى يكادُ مَن يراهُ فِي تَبختُرِه يَظنُّ أنّه الطّاووسُ في الكبرِ؛ لِبلوغِه حَدَّ الكفايةِ في توفيةِ الخطابِ حقَّهُ مِن المعنَى، ويجيءُ تعبيرُه بـ: "مَا كانَ أحوجَ مَن يُرقِّصُه..."، رمزًا لتطويعِ الشاعرِ لُغتَه في صورةِ علاماتٍ يُستدلُّ بها على ما يُضمرُه فيها من أنساقٍ حملَت في تضاعيفِها شيئًا من الواقعِ، باعتبارِها مجموعةً من "مقوماتِ الإشاراتِ وماهيَّةِ القواعدِ التي تتحكمُ فيها"[٢١]، تحكُّمًا يُبرزُ اشتمالَ خطابِ الثّيابِ الشعريِّ عَلَى خِطاباتٍ أُخرَى ذاتِ أبعادٍ نسقيّةٍ ثقافيةٍ تقودُه إلَى التحرّرِ مِن مفهومِ الالتزامِ الصّارمِ بِالمعاني الظّاهرِ لِهذه اللغةِ، لتتجاوبَ معَ مدلولاتِ هذه الأنساقِ المُتغيّرةِ؛ إيذانًا بأنَّ النصَّ مجردَ وسيلةٍ للكشفِ عن احتيالاتِ الأنساقِ القافيةِ في تمريرِ نفسِها عبرَها[٢٢].

ويُعبِّر كذلك عن مراوغةِ اللغةِ واحتيالِها على المتلقي في إظهارِ ما لا يُمكنُ إظهارُه صريحًا بقولِه[٢٣]:

ورَذَاذَ سُـــــــمٍّ للصَّـــــــديقِ يُـــــدافُ فـــــي عسَـــــلٍ بِلُطـــــفِ
وتَـــــرُوحُ فـــــي خُـــــدعٍ، وفـــــي ضَـــــرعٍ، وفـــــي نَشـــــرٍ ولَـــــفٍّ
لِتَلُـــــفَّ نَعـــــشَ جريمـــــةٍ فِ بُردَتَـــــي عبَـــــثٍ وقَصـــــفِ

فِي إشارةٍ مُبهمةٍ إلَى أنَّه لَم يَصُن حَرَمَ اللغةِ الّتي سَاعدتْه عَلَى الالتواءِ والمُراوغةِ؛ فرارًا مِمّا يُحاذرُه، حيثُ كَانَت لهُ عونًا عَلَى دسِّ السّمِ وخَلطِهِ بالعسلِ لِأصدقائِهِ، والمعنَى عَلَى أنّها كَانَت تُحيلُه عَلَ الإبهامِ بِأساليبَ مُختلفةٍ لَا يفهمُ منها القريبونَ منها إلّا مَا أرادَ أن يُبلِّغَه مِن مَعانِي خِطاباتِه، ناهيكَ عَمَّا يُحاولُ أن يَصِلَ بِه إلَى البعيدين عَنهُ، فَلم يَكُن يجدرُ بِه بعدَ ان أعانتْه عَلَى خداعِ مَن رَغب في خداعهم بِها هذا التّفريطَ، وكانت قَد بلّغتْه أغراضَه، وحقّقت أهدافَه عَلَى نحوٍ استطاعَ بِهِ تقديمَ الموتِ في ثوبِ الحياةِ، فلفَّ نعشَه في بُردتَين، إحداهما العبثُ، والأُخرَى القصفُ، وفي ذلكَ ما فيهِ مِن إبرازِ ثورةِ الثّيابِ عَلَى لُغتِه المُعتادة وتمرّدِه عَلَى قَوانينِها؛ لِإدراكِ سَعتِها وقُدرتِها عَلَى المراوغةِ وإتيانِ الحقيقةِ من وجوهٍ مختلفةٍ، لا لِرغبةِ هجرِها أو الوثوبِ عَليهَا، تَمهيدًا لتوقيفِ المُتلقّي عَلَ انّ سياسةَ الواقعِ تَحتاجُ إلَى سياسةِ اللغةِ.

المبحثُ الثّالثُ

طَفرةُ المبادئِ الإنسانيّةِ في قصيدةِ (لُغةِ الثّيابِ)

لَم تخلُ قَصيدةُ "الجواهري" الّتي عَرضَ فيهَا للكشفِ عَن ماهيّةِ لُغةِ الثّيابِن وماَ تعرّضَت لهُ مِن تحوُّلٍ ملموسٍ في الشّكلِ والمضمونِ بينَ خِطابٍ وآخرَ، مِن النصِّ عَلَى القيمِ والسّلوكياتِ الإنسانيةِ التي تُعدُّ رَكيزةً مِن الرّكائزِ الأساسيةِ ومَبدأً مِن المبادئِ الأصيلةِ فِي المُكوّنِ العامِّ للانساقِ الثّقافيّةِ التي اتّسمَ بِها مُجتمعُه، "معَ الإبقاءِ على ألِفْنَا وجودَه من قيمٍ جماليةٍ ودلاليةٍ، وما هو مُفترَضٌ فيها من أبعادٍ تاريخيةٍ وذاتيةٍ واجتماعيةٍ"[٢٤]، فإنَّ تشكيلَ بنيةِ الأنسقاقِ الثقافيةِ للخطابِ لا يتوقَّف على التلويحِ بالصورِ التعبيريةِ والرموزِ والعلاماتِ السيميائية فيه؛ لتمثيلِ هذا النوعِ من التحولِ في طبيعةِ النقدِ الأدبيِّ إلى النقدِ بِبُعدِه الثقافيِّ[٢٥].

وفي تشريحِ الخطابِ الشعريِّ لقصيدةِ (لغةِ الثيابِ) وفقَ الخطواتِ الإجرائيةِ ومبادئِ النقدِ الثقافيِّ، نجدُ أنَّ "الجواهري" قد انصاعَ لتلك السلوكياتِ الإنسانيةِ والقيمِ الاجتماعيةِ فعبَّرَ عنها، بوضعِها ضِمنَ نطاقاتِها التي تُثري الخطابِ؛ كونُها لا تنفصلُ عَن سّائرِ الأنساقِ الأُخرَى، غَيرَ أنّ ذِكرَه لها لَم يكنُ عَلَى جهةِ التّساوقِ، بَل تفرّقَت في هذا الخطابِ تبعًا لِتفرّقِ نَزعاتِه التّعبيريةِ

وقضايَاهُ الّتي ضمَّنَها هذه الجوانبَ الإنسانيةَ، فَبدَت مُستَتِرةً لا تتراءَى لقارئِ النّصِّ إلّا عَلَى كدٍّ وجهدٍ، ومن تجليَّات ملامحِ القيمِ الإنسانيةِ في هذه القصيدةِ ما جاءَ منصوصًا عليهِ بقولِ "الجواهري"[٢٦]:

وَأنَـــا الَّتـــي عَرَفَتْـــكَ إعصَـــا ... رًا يُـــــدَمِّرُ غِـــــبَّ عصـــــفِ
لَـــمْ تـــأْلُ تَخـــرقُ رِيطَتـــي ... مزَقًـــا إلَـــى رُبُـــعٍ ونِصـــفِ
أأقُـــولُ فِـــيمَ هَتكْتَنـــي ... أمْ إنَّ بَعـــضَ المـــحِ يَكفـــي؟!
أُفٍّ لِسِـــــنَّكَ حُلـــــوةً ... وَلِمَـــا تُخَبِّـــي ألـــفُ ألْـــفِ
وتَعِسْـــتُ مِـــن مظلُومـــةٍ ... نَـــذْرٍ عَلَـــى العَـــوراتِ وَقْـــفِ"

حيثُ استغلَّ "الجواهري" قِيمةَ الإنصافِ الّتي تنصُّ عَلَى ضرورةِ تَبادلِ العَدالةِ فِي الاقتسامِ والمَعاملةِ، وهي نَسقٌ ثقافيٌّ خُلقيٌّ قَليلُ الشّيوعِ في مَجتماعتِنا فِي هذا العصرِ، فِي إثارةِ نَزعةِ التّخوينِ بينَ اللغةِ والثيابِ، فَبعدَ أن عَهِدَتِ الثّيابَ إعصارَ يُدمّرُ كلَّ مُنتقصٍ منها، لَم يَعُد يدخرُ وسعًا في تَمزيقِها إلَى أرباعٍ وأنصافٍ، وذلكَ كِنايةٌ عَن خيانتِه لَهَا بدلًا مِن تعزيزِها فِي نفوسِ مُنتقصِيهَا، وفِي النّصِّ عَلَى التزامِ اللغةِ بِذمَّتِها تِجاهَ الثيابِ يَسوقُ "الجواهري" أسلوبَ الاستفهامِ الخارجِ عَن حقيقةِ استعمالِه إلَى الاستنكارِ[٢٧]، من قولِهِ: "أأَقولُ فِيمَ هَتكْتَنِي..."؛ تَعزيزًا لِفكرةِ تحوُّلِه عَن الانتصارِ لَهَا حتّى مَعَ بَقائِها هي عَلَى عَهدِها معَه.

ويؤكّدُ عَلَى فَقدِ الثّيابِ أدنَى درجاتِ الإنصافِ في القيامِ بِمَا ينبغي عَليهِ القيامُ بِه تجاهَ الحفاظِ عَلَى اللغةِ بِقولِهِ: "أُفٍّ لِسِنَّكِ حُلوَةً..."؛ إلَى حيثُ يذهبُ اسمُ الفعلِ المُضارعِ (أُفٍّ) مذهبَه مِن الإشعارِ بِالضَجرِ والضّيقِ النّاجمِ عَن الإحساسِ بالخذلانِ؛ لِتتقاطعَ معاني القرآنِ هُنا مَعَ أنساقِ المُجتمعِ العربيِّ الخُلقيةِ المُتناصّةِ معَ الواقعِ[٢٨]، فيُتَمِّمُ بِه المعَنى المُتآلِفِ معَ مَا نصَّ عَليهِ بالاستفهامِ الاستنكاريِّ، بِجانبِ مَا يُحقّقُه لَفظُ الظّلمِ مِن قولِهِ: "وَتَعِستُ مِن مَظلُومةٍ..."، مِن إشاراتٍ رمزيةٍ تنطوِي عَلَى نتيجةِ المُترتّبةِ عَلَى تَلك المقدّماتِ التي يُؤذنُ بِها تلويحُ اللغةِ بِعدمِ إنصافِ الثّيابِ.

ومما نصَّ عليهِ "الجواهري" مضمَّنًا قيمةً إنسانيةً تُعالجُ لومَ اللُّغةِ على الثيابِ في كسرِ جسرِ الثقةِ بينَها وبينَه، قولُه[٢٩]:

وحَسِـــــــبتَني أُلعُوبـــــــةً ... نَسْـــجَ الخيـــوطِ علَـــى الملـــفِّ
أكسُـــــو العُـــــراةَ ويَنتهـــي ... أمـــــري إلَـــــى سَـــــفَطٍ ورَفِّ
نُشِّـــــئتُ أَطهَـــــرَ منـــــكَ أرْ ... دانًـــــان وأطيـــبَ منـــكَ عرفـــي

فِـــي طِينـــةٍ هـــي غيـــرُ طِينِـــكَ فِ حِمَـــــــــى رَوضٍ أُلَـــــــــفِّ
فَلَـــكُ النُّجـــومِ الزُّهـــرِ سَـــقفي ومطـــــارفُ الكِتَّـــــانِ سَـــــجفِي

حيثُ يَنفي بِفعلِ الاعتقادِ القلبيِّ (حَسِبَ) مِن قَولِهِ: "وَحسِبتَني أُلعوبَةً" عَلَى لِسانِ اللغةِ مَا قَدَ ظنَّه الثّيابُ مِن قُدرةٍ عَلَى الاجتراءِ عَليهَا؛ لِأنّه وإن كانَ قَد توهّمَ ذلكَ فَما هو إلّا نتيجةَ طاعةِ اللغةِ لهُ، وانصياعِها لِرغبتِه في أن يَضعَهَا حيثُ شَاءَ، لَا حيثُ تنطبعُ معانيهَا في قلوبِ مُستمعيهَا، لِيجئ أسلوبُ النّفي هُنا متمازجًا معَ نبرةِ العتابِ اللاذعةِ الّتي بَدَت ظاهرةً فِي تَالِي البيتِ الأوّلِ، حَيثُ تَخطّى لِسانُ حالِاللغةِ كلِّ حدٍ في الاحتفاظِ بصورةِ الخطابِ المُهذّبِ؛ لتتوجّه للثيابِ بالسّبابِ المقذعِ، إنكارًا عليهِ وسُخريةً منه.

ويُجلّي قولُه: "أَكسُو العُراةَ ويَنتَهِي أَمرِي إِلَى سَفطٍ وَرفٍّ"، عَن دهشةِ اللغةِ من أنّها تَكسُو الألفاظَ العاريَةَ بِالمَعاني التي تَمُدُّها بِالدّلالاتِ المُختلفةِ، فَي الوقتِ الذي يَعَملُ الثّيابُ عَلَى سلبِها تلكَ الخصيصةَ، حيثُ يجعلُ منهَا سفسطةً لَا مغزَى لهَا، مِمّا حَرَّكَ فيها الحَنقَ عليهِ، فَراحَت تُعبّرُ عَن ذلكَ الحنقِ بِإنزالِ أقذعِ الشتائمِ به، فَنَسبَت إِلَى نفسِها ظُهرَ الأردانِ وطيبَ العَرْفَ، في مقابلِ خُبثِ أردانِهِ وقُبحِ ريحِه، وجودةِ الطّينةِ وطيبِ مُنبتِها، في مقابلِ رداءةِ طينتِه هو، ودورانُها في فَلكٍ مِن النّجومِ النيّراتِ، فيما يدورُ هو فِي ظُلمتِه.

وفيمَا هي تَلومُ وتُبدِي شَماتةً فِي الثّيابِ، لَا يَرَى وجهًا لَهَا، يَعملُ عَلاّ الدّفاعِ عَن نفسِهن فيُجرِي "الجواهري" الحوارَ عَلَى لسانِه، بقولِهِ[٣٠]:

يَـــا هَـــذِه بَعـــضُ الشَّـــما تـــةِ مُـــرَّةٌ بعـــضَ التَّشـــفِّي
أسْـــرفتِ فِـــي شَـــتمي فَكُفِّـــي وَغلَـــوتِ فـــي نعتِـــي ووصـــفِي
وكَـــــذبْتِ؛ إذ صَـــــوَّرتِني مَـــن لـــيسَ يومًـــا فِـــي مَصَـــفِّي
وصَـــــدقْتي لَـــــو حَمَّلتِنـــــي وزرَ الحَلـــــيمِ المُســـــتخِفِّ
وجهِلتـــــــي أيُّ بواعـــــثٍ تَجتَـــرُّ مـــن رِفقـــي وعُنفـــي

فذلك الذي صوَّره من بواعثِ المباينةِ في السلوكِ بينَ العنفِ والرفقِ، هو ما مكَّنه من الدفاعِ عن نفسِه أمامَ محكمةِ اللغةِ التي تعرَّض فيها لأبشعِ العقوباتِ، حيثُ أدانتْه بِمَا تلوحُ فيهِ براءتُه مِمّا رمتْه بِه مِن الاتهاماتِ، فَشرَعَ خِطابَه لَهَا بِالتّحقيرِ مِن شَأنِها بِقولِهِ: "يَا هذِه..."، مِن حيثُ كانَ نداءُ اسمِ الإشارةِ بدلًا مِن التّصريحِ بِالاسمِ الظّاهرِ علامةً مدلولًا بِها عَلَى الاحتقارِ؛ لأنّ اسمَ

الإشارةِ – كَما هو مُصرّحٌ بِه عِندَ النّحويينَ – مِن المُبهماتِ، وجهةُ الإبهامِ فيهِ أنَّه غيرُ محددِ المعنَى بِذاتِه[٣١]، وقد يُرادُ بِه مُطلَقُ الجنسِ، وفي الشيوعِ كذلك من الإبهامِ ما يُستدلُّ بِه على احتقارِ شأنِ المشارِ إليهِ[٣٢]، والغايةُ مِن هذا الإبهامِ إرادةُ النّصِّ عَلَى مُجاراةِ الثيابِ لِلُّغةِ عَلَى طريقتِها فِي سبِّه، فيخرجُ الكلامُ عَن إطارِ المعنَى الدلاليِّ إلَى إحداثِ المُوازنةِ بينَ نَسقِ القيمةِ الإنسانيةِ المبنيةِ عَلَى الامتهانِ ومَعَ ماَ يُقابلُها؛ لِتتساوىَ القيمتانِ.

خاتمة

وفِي نَهايةِ البَحثِ يُمكنُ رَصدُ وتسجيلُ أهمِّ مَا تَوصّلت إليهِ الدّراسةُ فِي مَباحثِها الثّلاثةِ عَلَى الوجهِ الذي يُبيّنُ سَيرَهَا، ويسبرَ أغوارَهَا، ويُظهرُ مدياتِ التّعاملِ مَعَ النّماذجِ المُختارةِ مِن قصيدةِ (لُغةِ الثّياب) لمحمد مهدي "الجواهري"، وَقد جَاءَت النّتائجُ عَلَى هذا النّحوِ:

–تُعدُّ الأنساقُ الثقافيةُ أحدَ أهمِّ الركائزِ الّتي يَقومُ عَليهَا الخطابُ الإبداعيُّ، وأبرزِ السّماتِ الّتي تَعملُ عَلَى إظهارِ التحوّلاتِ الخطابيةِ مِن صَورةٍ إلَى صورةٍ.

–تَرتبطُ دراسةُ الأنساقِ الثّقافيةِ في الخطاباتِ الإبداعيةِ بعناصرِ اللغةِ ارتباطًا غيرَ مباشرٍ؛ لأنَّها لَا تقومُ عَلَى اللغةِ بِوصفِها عنصرًا جماليًّا، بَل بوصفِها وسيلةً توصيليةً.

–تضمّنت قصيدةُ لُغةِ الثّيابِ للجواهري عددًا من الأنساقِ الثقافيةِ المُتباينةِ والمُتداخلةِ في آنٍ.

–سَعَت دَراسةُ قَصيدةِ لُغةِ الثيّابِ دراسةً نَسقيةً إلَى فَتحِ آفاقٍ قراءةٍ جديدةٍ لَهَا عَبرَ معاييرَ المُجتمعِ، وتَجربةِ الشّاعرِ الّتي نَقَلَها عَبرَ تلكَ الأنساقِ لمُتلقّيهِ.

–وظَّفَ "الجواهري" بعضَ الآليّاتِ الّتي تَخدمُ دَراسةَ النّسقِ الثّقافيِّ فِي قصيدتِه (لُغةِ الثيابِ)، لَا بِحَسبِ مَا تَقتضيهِ جماليةُ الخطابِ الشعريِّ وحسبُ، بَل تَبعًا لِطبيعةِ النّسقِ الثقافيِّ الذي يَتناولُه فِي ضوئِها.

–أسفرَت دراسةُ الأنساقِ الثّقافيةِ في قصيدةِ (لُغةِ الثّيابِ) عَن حاجةِ الدّرسِ النّقديِّ إلَى مزيدٍ من السّعي فِي تناولِ الخطابِ الشّعريِّ من خلالِ هذه الأنساقِ.

توصيات

وقَد أسفرَت هذه الدّراسةُ عَن عددٍ مِن التوصياتِ التي لَا بُدَّ مِن أخذِها بِعينِ الاعتبارِ، وجعلِها في بُؤرةِ اهتمامِ الباحثِينَ، ومِن أظهرِها:

-ضرورةُ توفيرِ الباحثينَ جانبًا مِن جهودِهم عَلَى النّظرِ إلَى النصِّ الشّعريِّ في ضوءِ مُعطياتِ الأنساقِ الثّقافيةِ.

-توجيهُ الباحثينَ والنّقادُ عنايتَهم إلَى تناولِ النصوصِ الشّعريةِ القديمةِ عَلى هَدْيٍ مِن مبادئِ الأنساقِ الثّقافيةِ.

-محاولةِ إعادةِ قراءةِ الخطاب الشّعريِّ العربيِّ قديمِه وحديثِه، وإنتاجِ دلالتِه وفقَ المعاييرِالمنصوصِ عَليهَا في الدّرسِ التّنظيريِّ للأنساقِ الثّقافية؛ لِمَا في ذلكَ مِن الإسهامِ في إعادةِ النّظرِ إلَى الموروثِ الشعريِّ بصورةٍ جديدة.

مراجع

هوامش البحث

(١) الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تح: د. عبد الحميد هنداوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط٤، ٢٠٠٧، ٣٤/١

(٢) ينظر: تشريح النص، د. عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط٢، ٢٠٠٦، ص١٠٦

(٣) الخطيئة والتكفير (من البنيوية إلى التشريحية)، د. عبد الله الغذامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤، ١٩٩٨، ص٢٩

(٤) ديوان "الجواهري"، جمعَه وحققه وأشرف على طبعِه: د. إبراهيم السامرائي – د. مهدي المخزومي، وآخرَين، مطبعة الآديب البغدادية، العراق، ط١، ١٩٧٣، ص٧٥

(٥) ديوان "الجواهري"، ص٧٦

(٦) ديوان "الجواهري"، ص ٧٦

(٧) الصورةُ الاستعاريةُ بينَ القديمِ والحديثِ، د. مهاب عبد الواحدِ أحمد، دار يقين للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط١، ٢٠١٣، ص٩١

(٨) ينظر: الانزياحات اللغوية في الشعر العربي (أبو العلاء المعري نموذجًا)، د. أحمد عزام، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاهرة، مصر، عد: ٢١، ٢٠١٢ ص٤٣٥

[٩] ينظر: دلائلية النص الأدبي (دراسة سيميائية للشعر الجزائري)، ديوان المطبوعات الجزائري، ط١، ١٩٩٣، ص٩٧

[١٠] ديوان "الجواهري"، ص٧٧

[١١] عصر البنيوية من ليفي شترواس إلى فوكو، إديث كيرزويل، تر: د. جابر عصفور، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط١، ١٩٩٧، ص٢٦٦ "

[١٢] مفهوم الأدب السياسي في ضوء العلاقة المتبادلة بين الأدب والسياسة، رؤى حيدر المؤمني، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج: ٤٦، عد: ٢، ٢٠١٩ ، ص٣٦٩

[١٣] ينظر: إستراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، د. عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠٠٣، ص١٢ – ١٣"

[١٤] النقد الثقافي (قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، د. عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربين الدار البيضاء، المغرب، ط٣، ٢٠٠٥، ص١٩١

[١٥] ديون "الجواهري"ن ص ٧٧

[١٦] المفارقة في شِعرِ شعراءِ الرواد (دراسة أسلوبية)، محمد حمدي الشعار، مجلة روافد، طرابلس، ليبيا، عد: ١٩، ٢٠١١، ص٣٥٦

[١٧] ينظر: النقد الثقافي، عبد الله الغذامي، ص١٥

[١٨] "فقه اللغة وسر العربية، أبو منصور الثعالبي، تح: إميلين نسيب، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٨، ص٤٠٠

[١٩] "السرد والأنساق الثقافية، عبد الفتاح كيليوطو، تر: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، تونس، ط٢، ٢٠٠١، ص١٩

[٢٠] ديوان "الجواهري"، ص٧٨ "

[٢١] علم اللغة العام، فرديناند دي سوسير، تر: د. يونيل يوسف عزيزن دار آفاق عربية، بغداد، العراق، ط١، ١٩٩٦، ص٣٤

[٢٢] ينظر: الأنساق الثقافية (المفهوم والاشتغال)، د. العمري أبو زهرة، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، مج: ١٤، عد: ٠٢ (٢٠٢١)، ص٢٨٧

[٢٣] ديوان "الجواهري"، ص٨٠

[٢٤] النقد الثقافي، عبد الله الغذامي، ص٦٥ "

[٢٥] ينظر: النقد الثقافي، عبد الله الغذامي، ص٦٥

[٢٦] ديوان "الجواهري"، ص٨٠ – ٨١

[٢٧] ينظر: عَلم المعاني، د. عبد العزيز عتيق، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط١٣، ٢٠١٣، ص٣٦

[٢٨] "يُنظر: التناصُّ والتلاصُّ (المبادئُ والخطواتُ الإجرائية)، د. جيهان عدلي عبد المنعم، دارَ مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠١، ص١٩١

[٢٩] ديوان "الجواهري"، ص٨٣

[٣٠] ديوان "الجواهري"، ص٨٤

[٣١] ينظر: شرح شذور الذهب من كلام العرب، ابن هشام، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٣، ص٣٢٦ "

[٣٢] ينظر: جامع الدروس العربية، مصطفى الغلاييني، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط٢٨، ١٩٩٣، ١٠٨/١

مراجع الدراسة:

-"إستراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، د. عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠٠٣

-الانزياحات اللغوية في الشعر العربي (أبو العلاء المعري نموذجًا)، د. أحمد عزام، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاهرة، مصر، عد: ٢١، ٢٠١٢

-الأنساق الثقافية (المفهوم والشتغال)، د. العمري أبو زهرة، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، مج: ١٤، عد: ٠٢ (٢٠٢١)"

-"تشريح النص، د. عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط٢، ٢٠٠٦

-التناصُّ والتلاصُّ (المبادئُ والخطواتُ الإجرائية)، د. جيهان عدلي عبد المنعم، دارَ مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠١

-جامع الدروس العربية، مصطفى الغلاييني، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط٢٨، ١٩٩٣

-الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تح: د. عبد الحميد هنداوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط٤، ٢٠٠٧

-الخطيئة والتكفير (من البنيوية إلى التشريحية)، د. عبد الله الغذامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤، ١٩٩٨

-دلائلية النص الأدبي (دراسة سيميائية للشعر الجزائري) ديوان المطبوعات الجزائري، ط١، ١٩٩٣

-ديوان محمد مهدي "الجواهري"، جمعَه وحققه وأشرف على طبعِه: د. إبراهيم السامرائي – د. مهدي المخزومي، وآخرَين، مطبعة الأديب البغدادية، العراق، ط١، ١٩٧٣

-"السرد والأنساق الثقافية، عبد الفتاح كيليوطو، تر: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، تونس، ط٢، ٢٠٠١

-شرح شذور الذهب من كلام العرب، أبو عبد الله جمال الجدين بن هشام، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٣

-الصورةُ الاستعاريةُ بينَ القديمِ والحديثِ، د. مهاب عبد الواحدِ أحمد، دار يقين للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط١، ٢٠١٣

-عصر البنيوية من ليفي شترواس إلى فوكو، إديث كيرزويل، تر: د. جابر عصفور، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط١، ١٩٩٧

-علم اللغة العام، فردينان دي سوسير، تر: د. يونيل يوسف عزيزن دار آفاق عربية، بغداد، العراق، ط١، ١٩٩٦ "

-"عَلم المعاني، د. عبد العزيز عتيق، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط١٣، ٢٠١٣

-فقه اللغة وسر العربية، أبو منصور الثعالبي، تح: إميلين نسيب، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٨

-المفارقة في شِعرِ شعراءِ الرواد (دراسة أسلوبية)، محمد حمدي الشعار، مجلة روافد، طرابلس، ليبيا، عد: ١٩، ٢٠١١

-مفهوم الأدب السياسي في ضوء العلاقة المتبادلة بين الأدب والسياسة، رؤى حيدر المؤمني، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج: ٤٦، عد: ٢، ٢٠١٩

-النقد الثقافي (قراءة في الأنساق الثقافية العربية، د. عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربين الدار البيضاء، المغرب، ط٣، ٢٠٠٥ "

Works Cited:

Abdel-Moneim, Jehan Adly. *Intertextuality and Textual Overlap: Principles and Procedural Steps*. Dar Maktabat Al-Adab, 2001.

Ahmed, Mohab Abdelwahid. *The Metaphorical Image: Between Tradition and Modernity*. Yaqeen Publishing and Distribution, 2013.

Al-Ghalayini, Mustafa. *Compendium of Arabic Lessons*. 28th ed., Al-Maktabah Al-Asriyya, 1993.

Al-Ghadhami, Abdullah. *Sin and Redemption: From Structuralism to Deconstruction*. 4th ed., Egyptian General Book Organization, 1998.

Cultural Criticism: A Reading in Arab Cultural Patterns. 3rd ed., Arab Cultural Center, 2005.

Text Dissection. 2nd ed., Arab Cultural Center, 2006.

Al-Jawahiri, Muhammad Mahdi. *Collected Poems of Muhammad Mahdi Al-Jawahiri*. Edited by Ibrahim Al-Samarrai, Mahdi Al-Makhzoumi, et al., Al-Adib Press, 1973.

Al-Moumani, Rua Haidar. "The Concept of Political Literature in Light of the Mutual Relationship between Literature and Politics." *Journal of Human and Social Sciences*, vol. 46, no. 2, 2019.

Al-Shahri, Abdulhadi bin Dhafer. *Discourse Strategies: A Linguistic-Pragmatic Approach*. Dar Al-Kitab Al-Jadeed Al-Muttahida, 2003.

Atiq, Abdul Aziz. *Ilm al-Ma'ani (The Science of Meanings)*. 13th ed., Dar Al-Shorouk, 2013.

Azzam, Ahmad. "Linguistic Deviations in Arabic Poetry: Abu Al-Alaa Al-Ma'arri as a Model." *Journal of the Faculty of Arts and Humanities*, no. 21, Cairo University, 2012.

Ibn Hisham, Abu Abdullah Jamal Al-Din. *Sharh Shudhoor al-Dhahab min Kalam al-Arab (Explanation of the Golden Nuggets in Arabic Speech)*. Edited by Mohamed Mohieddin Abdel Hamid, Dar Al-Tala'i', 2003.

Ibn Jinni, Abu Al-Fath Uthman. *Al-Khasa'is (Linguistic Features)*. Edited by Abdel Hamid Hindawi, 4th ed., Egyptian General Book Organization, 2007.

Khelliouto, Abdel Fattah. *Narrative and Cultural Patterns*. Translated by Abdelkabir Al-Sharqawi, 2nd ed., Dar Toubqal for Publishing, 2001.

Kurzweil, Edith. *The Age of Structuralism: From Levi-Strauss to Foucault*. Translated by Gaber Asfour, General Cultural Affairs Department, 1997.

Saussure, Ferdinand de. *Course in General Linguistics*. Translated by Younil Youssef Aziz, Afaq Arabiya Publishing, 1996.

Sha'ar, Mohamed Hamdi. "Irony in the Poetry of Pioneer Poets: A Stylistic Study." *Rawafed Journal*, no. 19, 2011, Tripoli, Libya.

Tha'alibi, Abu Mansour. *Fiqh al-Lugha wa Sirr al-'Arabiyya (Philology and the Secret of the Arabic Language)*. Edited by Emilein Nasib, Dar Al-Jeel, 1998.

Signification of the Literary Text: A Semiotic Study of Algerian Poetry. Algerian Publications Office, 1993.

Zahra, Al-Omari Abu. "Cultural Patterns: Concept and Practice." *Journal of Arts and Humanities*, vol. 14, no. 2, 2021.